الحلقة الثانية

إيجابية الصيام

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : أيتها الأخوات المؤمنات :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد : فتلك هي مائدة شهر رمضان المبارك ، تمد أمام المسلمين في شتي بقاع الأرض طيلة هذا الشهر ، وهي مائدة زاخرة بشتي الأطعمة الروحية ، وألوانها المتنوعة ، ولنتناول لونا من هذه الألوان التي فوق تلك المائدة ، لكي نسد رمق أرواحنا ، ولنشبع رغبات قلوبنا ، وهذا اللون من تلك المائدة ، هو إيجابية الصيام ، وقد مر بنا في الحلقة السابقة ، أن الصوم يبدو سلبيا في مظهره ، لكنه في الحقيقة والواقع إيجابي ، لأنه يمكن الصائم من التحكم الجاد في النفس، وإلجامها عن الوقوع في المعصية ، وكبح جماحها وكفها عن المشتهيات والرغبات، والصورة واضحة أمامنا ، غير خافية علينا ، حيث إن الصائم يظل ممسكا عن الطعام وعن الشراب وعن سائر المفطرات مدة كبيرة من الزمن ، تتمثل في الفترة التي تبدأ من قبيل الفجر وتنتهي بغروب الشمس ، والصائم بهذا الإمساك قد ألجم نفسه في هذه الفترة الزمنية الكبيرة وكفها عما تميل إليه من رغبات ومشتهيات ، والذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه الحلقة التي معنا ، هو بيان مفهوم إيجابية الصوم بيانا شافيا ، وللحديث عن ذلك نقول : إن إيجابية الصوم لا تتمثل في البعد عن المشتهيات والرغبات فحسب ، وإلا لو كان الأمر كذلك ، وانتهي عند هذا الحد دون امتداد إلى غيره ، لكان الصوم بهذا المعني الضيق غير عميق الأثر ، ولما وصل بالصائم إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ويرنو إليها ، ولكان الصوم - والحال هذه - كجسم خال من الروح ، أو كان كشجرة جرداء بلا ثمر ، وحاشا أن تكون عبادة الصوم بهذه الصورة ،

وإذاً فإيجابية الصوم لا تتمثل في هذا الجانب فقط ، وإنما هذا الجانب وهو التحكم في النفس ، ما هو إلا إعداد وتهيئة وتمهيد لجانب آخر عظيم ، وهو التحليق بالروح في سماء الفضائل وجو الصفاء والإشراقات ، وطبع النفس علي الأخلاق الفاضلة ، والخلال الحميدة ، وبهذا المعني وعلي ضوء ذلك ، تكون إيجابية الصوم متمثلة في شيئين : أولاهما : هذا الكف والامتناع عن المفطرات ، وفرض سلطان العقل بقوة علي نوازع النفس ، وإسكات صوت الهوى في الإنسان الصائم ، وتطهيره مما يكون عالقا بنفسه من دنس ، أما الأمر الآخر : وهو ذو صلة وثيقة بالآمر الأول ، ويعتبر مكملا له ، وبهذا الارتباط وتلك الصلة ، تتحقق إيجابية الصوم ، ويؤتي ثماره المرجوة ، وهذا الأمر المكمل ، يتمثل في تأثر الصائم بهذه العبادة ، وإحاطة الصوم بسياج منيع من الفضائل ، وفي مقدمتها تقوي الله ، والأدب مع الله ، وعفة النفس وإلجامها عن كل ما يشين، وبعد اللسان عن اللغو وإساءة الناس ، وتتمثل كذلك في التحلي بفضيلة الصبر ، وهذه الفضيلة ذات ارتباط قوي بفريضة الصوم ، ثم علي الصائم كذلك ، أن يعطف علي اليتامى، ويواسي الفقراء ، وأن تمتد يده بالبر والإحسان إلى من أخني عليهم الدهر ، ويواسيهم ويخفف عنهم أحزانهم ، ثم يؤصل هذه الفضائل وتلك الخلال الطيبة في نفسه ، بحيث يكون الصائم في هذا الشهر ملاكا كريما ، ورمزا جميلا في ميدان الخير ، وبحيث يكوّن في شهر الصيام رصيدا كبيرا في مجال الطاعة والعبادة ، وبهذا يكون ذا ثروة واسعة من الحسنات والرضا من الله ، فشهر رمضان شهر مبارك .

والصوم الذي فرضه ربنا فيه لهو خير مؤدب واعظم مرب ، والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان يهتم بهذا الشهر كل الاهتمام ، وكان يضاعف فيه جوده وسخاءه ، حتى إنه كان فيه أجود من الريح المرسلة ، ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة .

والصوم كالشجرة في نفعها وظلها الواقي ، وقد قيل عن الصوم والشجرة: بأن الصوم كشجرة جذعها الصبر ، وأغصانها شكر الله ، وأوراقها وثمارها ذكر وفكر ، وتسبيح وتحميد ، وتضرع

وابتهال ، ودعاء وسؤال ، وإقبال علي الله ، وانقطاع بالكلية إليه ، وإذاً فليس الصوم مجموعة من الأمور السلبية فقط، وإنما هو مجموعه أمور إيجابية ، تتمثل في كف وإلجام النفس ، والتأثر بفريضة الصوم ، وانطلاق الروح في عالم الصفاء والطاعة والسمو بها في جو العبادة ، وإبعاد اللسان عن الغيبة والنميمة ، ومما يؤكد ذلك وغيره مما أمر به الدين ونهي عنه ، تحدث القرآن الكريم عن الحكمة البارزة من الصيام ، وذلك في قوله تعالي: ﴿ لعلكم تتقون ﴾.

فالتقوى هي الغاية من الصيام ، وإليها تعود جميع الفضائل ، وبها يبتعد الإنسان عن جميع الرذائل ، وما التقوى إلا تحلية وتخلية ، تحلية بكل ما يرضي الله من قول وفعل ، وتخلية عن كل فعل ذميم أو قول مشين.

والصوم الذي ينشده الدين يجسد هذا المعني ، حيث إن التخلية تمثل جانب الابتعاد والاجتناب ، والكف والانتهاء ، والتحلية تمثل جانب الإنشاء والبناء والإقبال والاقتراب ، الاقتراب من رحمة الله ورضاه بعد الإقبال عليه بما أمر به والبعد عما نهي عنه .

فالصوم بهذا المعني الكبير وتلك الإيجابية الواسعة ، وبوجود روحه وتوفر حقيقته ، يكون ذا أثر عظيم ، ويترتب عليه أجزل الأجر من الله الواسع العطاء ، الكريم الذي لا تنفد خزائن كرمه . إن الصوم في الإسلام لا يكفي فيه المظهر السلبي ، وإنما هو قبل ذلك ، عمل روحي إيجابي ، وربنا - جل شأنه - ، لم يأمر عباده بالصوم لكي يحرموا أنفسهم من الطيبات من الرزق ولتهزل أجسادهم، ويعانوا ألم الحرمان ومرارة الجوع ،إنه سبحانه لم يأمرهم بالصوم من أجل ذلك ، وإنما لأهداف سامية وأغراض أخرى ، وهي تلك التي تمثلها إيجابية الصوم ، فالصوم وسيلة لأنبل غاية ، وهي السمو بالروح والتحليق بها في عالم الصفاء والتقي ، والقرآن الكريم يؤكد أن ربنا يريد لنا اليسر ولا يريد بنا العسر والمعاناة ، وذلك في قول الله تعالي :

﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(البقرة :١٨٥).

فليس هدف الصوم إذاً الحرمان لذاته ، وليس الغرض منه الألم البدني ، وإنما الهدف والغاية ، تحقيق خلال الخير ، والصوم اختبار روحي ، وعبادة نافعة، تأخذ بيد الصائم إلى منابع الخير ، وتوصله إلى الرضا الإلهي ، وتدربه علي التحمل والصبر ، والصوم سلبي في الظاهر إيجابي في حقيقته ، وعلي الصائم أن ينظر إلى الصوم من الزاوية الإيجابية ، وبهذه النظرة الدقيقة الواعية ، ستتضح لديه الصورة الحقيقية للصوم ، وسيجد نفسه وقد تحول إلى ملاك كريم ، وليكن الهدف الأسمى من الصوم في نظره هو تكوين الشخصية الإيمانية ، التي تتحلى بأنبل الصفات وأسماها ، والله ولي التوفيق .